

المدينة: تطور، رهانات وتحديات

أ.د فوزي بودقة

-جامعة هواري بومدين الجزائر

المدينة والتاريخ

المدينة "المكان المميز للتاريخ" والتجمع الأبرز في تاريخ تطور التجمعات الإنسانية، عبر العصور منذ بضعة آلاف من السنين، فيها نما الإنسان وتطور، على ترابها أبدع واخترع. سبق ظهور المدينة ولحظة نشوئها وقيامها حدوث ثورة في إنتاج الغذاء، كما أجمع الكثير من العلماء، حيث وجد الماء والأراضي الخصبة والزراعة.

كان من نتائج هذه الثورة الحصول على فائض لأول في التاريخ، الأمر الذي سمح بإطعام أعداد كبيرة من البشر، انصرف نسبة كبيرة منهم للقيام بأنشطة غير زراعية، وبالتأمل والتفكير والتنظيم، اختيرت مواضع المدن في أماكن تمتاز بسهولة وصول الغذاء بكميات وفيرة، مكان يمهد لغد حريف وفني، ولبعد غدٍ صناعي وتنظيمي وإداري، يمهد لحكم وإدارة لتجمعات بشرية كانت معزولة ومنفصلة عن بعضها البعض، لتشكل تجمعاً رئيسياً واحداً هو المدينة، وبروز بواكير الوظائف، التي تم نقلها من حالة التبعر وقلة التنظيم، إلى حالة أكثر تجمعاً وتنظيماً، تعبر عن حالة من دفق النشاط والتفاعل الكبير في المكان وفي الزمان.

المدينة إذن هي خلاصة تاريخ الحياة الحضرية، وهي الكائن الحي كما عرفها لوكوربزيه، هي الناس والنقل والتنقل والمواصلات وهي التجارة والاقتصاد، والفن والعمارة، والصلوات والعواطف، والحكومة والسياسة، والعلم والثقافة والذوق، وهي أصدق تعبير لانعكاس ثقافة الشعوب وتطور الأمم، إنها باختصار صورة لكفاح الإنسان وانتصاراته على الطبيعة وهزائمه منها، وهي صورة للقوة والسلطة والمال ولرغد الحياة، ولكن هذه الصورة مع الأسف، لا تخلو من مظاهر البؤس وأحياء الفقر والحرمان.

من هنا تبدأ قصة المدينة نشوءاً ومساراً وتطوراً، ولعل المدينة المعاصرة، تمر بأخطر مرحلة من مراحل التطور والنمو، بدلالة النمو بوتائر سريعة وغير مسبقة، وإنتاج وتعميم الظاهرة الحضرية، وصولاً إلى تكريس ظاهرة الانفلات الحضري لاسيما بالمدن والتجمعات الحضرية الكبيرة.

عصر الصناعة والتمدين

في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، انبزع فجر جديد، إنه فجر الثورة الصناعية، كنتيجة لاكتشاف القوة والآلة البخارية واستخدامها في الصناعة، وتحول العمل لأول مرة من عمل يدوي إلى عمل ميكانيكي، وتحول الورشة الصغيرة الملحقة بالمنزل، إلى ورشة صناعية صغيرة خارج المنزل، ثم إلى مصنع قائم بذاته، وتحولت بريطانيا بداية ثم بلدان أوروبية أخرى، من مجتمعات زراعية على مجتمعات مصنّعة، إيداناً بالتحول التاريخي والانتقال التدريجي، من حياة ريفية محضة إلى حياة الحضر، وانتقال فئات هامة جداً من المجتمع، من نمط حياة بسيط إلى نمط حياة أكثر تعقيداً، واتسع هذا الانتقال ليأخذ أبعاداً شاسعة، باختراع السيارة واستخدامها في التنقل والحركة، فضلاً عن وسائل النقل الأخرى.

أدى استخدام الآلات الميكانيكية إلى زيادة الإنتاج، وبالتالي توسع الأسواق وتنشيط الحياة الحضرية أكثر فأكثر، واتساع أماكن الصناعة والتسويق والتجارة، وبطبيعة الحال امتداد المدينة بأحيائها السكنية وتجمعاتها الحضرية الجديدة، ما أدى إلى اتساع حجم ومساحة المدينة، لتأخذ أبعاداً غير مسبوقة، وتطوراً في أشكال النمو والامتداد، بالاستناد إلى أفكار ونظريات وتصورات عديدة، لعل أبرزها تصور فون تونان (1783 - 1850) في تقسيمات أرض المدينة وفريدريك راتزل (1844 - 1904) الذي أشار إلى العوامل التي تتحكم في توزيع الإنسان على المجال، وديكنسون وسميلز وقديس ولويس ممفورد صاحب الكتاب الشهير "المدينة عبر العصور" وغيرهم الكثير ممن أبرعوا في تناول المدينة، ولكن هل عرفت المدينة تطوراً هائلاً وشاملاً، لجميع مكونات المدينة وعناصر نظامها الحضري، كالذي عرفته بعد انطلاق ثورة التصنيع الثانية؟

الثورة الصناعية الثانية وثورة التعمير الثانية

عرفت البلدان الأوروبية تحديداً، نهضة عمرانية في إطار العملية الشاملة، لإعادة البناء بعد التدمير والخراب الكبير، الذي طال المدن الكبيرة والعواصم خاصة، أثناء الحرب العالمية الثانية.

بدأت منذ النصف الثاني من القرن العشرين، التحولات العمرانية الكبيرة، والتطور الهائل للمدن يسير بوتيرة سريعة جداً، تفوق بكثير نمو وتطور المدينة بالحقة الصناعية الأولى.

تمثلت هذه التحولات في التطوير الكبير لوسائل الإنتاج، باستعمال التجهيزات والمعدات الإلكترونية، التي حلت محل قسم هام جداً من العمل الفكري والذهني، وحلت الأتمتة الإلكترونية الحديثة محل الأتمتة الميكانيكية، ما أجمع من حجم الإنتاج والمزيد من التنافس على الأسواق، والتغيرات الوظيفية المترتبة عن التحولات الاقتصادية التي فرضت نفسها على الوظائف الجديدة للمدينة، وعلى نوعية الحياة وظروف معيشية السكان بالمدينة.

الرهانات والتحديات

هذا الفعل الحضري وهذه التحولات العمرانية الكبيرة في حياة المدينة، لم تؤثر فقط على تطور المدن الأوربية، بل كان لها أيضاً التأثير الواضح على مدن البلدان السائرة في طريق النمو. وهذا ما يلحظ في المدن الجزائرية وخاصة الكبيرة منها، حيث وتيرة النمو والتطور العمراني غير المسبوق. ولعل مناقشة بل التعمق في مناقشة محاور أساسية في حياة المدينة الجزائرية، مثل: عوامل نشأة المدينة واختيار موضعها وموقعها، وتطور وظائف المدينة وديناميكياتها وامتدادها العمراني، والسياق الإقليمي الذي في إطاره تنمو وتتطور وتتسع المدينة، وآليات وأدوات التنظيم والتطوير الحضري داخل المدينة ذاتها، وتحسين نوعية الحياة لهي محاور جديرة بالدراسة، وصولاً إلى مدينة أكثر تنظيماً وبنوعية حياة وظروف معيشية مقبولة لسكانها ومرتابها.

يعيش أكثر من نصف سكان العالم اليوم في المدن، وتعرف البلدان السائرة في طريق النمو سرعة كبيرة، في التعمير تفوق أحياناً المعدل العلمي لنسبة التحضر، ومن المرجح أن تزيد هذه النسبة بخطى حثيثة في قادم السنين، وتشير بعض التقديرات إلى أنه، في عام 2025، سيصبح أربعة بين كل خمسة من السكان يعيشون في المدينة. ومن المحتمل أيضاً أنّ قدراً كبيراً من هذا النمو، سيحط رحاله في أكثر بلدان العالم فقراً وبؤساً.

ينبئ مستقبل المدن برهانات وتحديات، يحمل بين طياته مخاطر كبيرة على البيئة والضغط على الموارد الطبيعية، والتأثير السلبي على التماسك الاجتماعي وعلى حقوق الفرد، والتنمية المستدامة بصفة عامة، ولكنه يتيح أيضاً فرصاً هائلة للتنمية والتطور، لمن يتمكن من تحديد تحديات اللحظة التاريخية للتطور، أمام هذه الطفرة المتزايدة في نمو المدينة وتطور الظاهرة الحضرية.